محمد العربي بن مهيدي ودوره في تنظيم العمل الفدائي بمدينة الجزائر (أكتوبر 1956- مارس 1957)

د. بوشنافي محمد*

يشكل الشهيد محمد العربي بن مهيدي أهم الشخصيات التي كان لها دور بارز في اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954، حيث يرد اسمه في كل المحطات الهامة سواء أثناء التحضير للثورة أو خلالها وهذا إلى غاية استشهاده في يوم 3 أو 4 مارس 1957، فكان ضمن المشاركين في اجتماع الاثنين والعشرين عضوا الذي انعقد في شهر جوان 1954 بالعاصمة في حي المدنية (صالمبي سابقا- CLOS MBIERSALE) والذي قرر التعجيل بإعلان الثورة، كما اختير ضمن مجموعة الستة التي كلَفت بالتحضير للكفاح المسلح والتي ضمَت كذلك كلا من محمد بوضياف كمنسق للمجموعة وديدوش مراد ومصطفى بن بو العيد ورابح بيطاط وكريم بلقاسم.

أصبح بن مهيدي مكلفا بالتحضير للثورة في المنطقة الخامسة ومسؤولا عنها منذ الأول نوفمبر 1954، غير أن أهم مشكل اعترض الشهيد كان نقص السلاح، مما جعله يسعى جاهدا إلى حله، فاضطر للسفر مرتين إلى القاهرة واتصل بأعضاء الوفد الخارجي للجبهة المكلف بالتسليح هناك، فكانت الرحلة الأولى في عام 1955، أما الثانية فكانت في شهر يناير من العام 1956 حين شارك إلى جانب أحمد بن بلة ومحمد بوضياف في اجتماع القاهرة لممثلي جيش تحرير المغرب العربي، والذي حضره عن الجانب المغربي كل من الدكتور المهدي بن عبود ومحمد بن عبد الله المساعدي، أما الغاية منه فكانت دراسة واقع الكفاح على الجبهة الغربية بين البلدين وخطة الجهاد للشهور الستة المقبلة. وانتهى الاجتماع بكتابة مذكرة يوم 21 يناير 1956 تضمنت قرارات تخص المنطقة الخامسة ومنها الحاجة إلى السلاح والتي حددت كالآتي[1]:

*- أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- كلية الآداب والعلوم الانسانية - جامعة الجيلالي ليابس.

- 1000 قطعة تتوزع كما يلي: 60% بنادق، 25% بندقية رشاشة، 15% رشاش خفيف.
- 10 بازوكا، 5 رشاش ثقيل، 15 هاونا، 50 مسدسا، 3000 قنبلة يدوية، طن من المفرقعات.
- الذخيرة: وتشمل 500 طلقة لكل بندقية، 2000طلقة لكل سلاح أوتوماتيكي، 250 طلقة لكل مسدس.

إن ما يهمنا في هذا المقال تلك الفترة الممتدة ما بين انعقاد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 واستشهاد بن مهيدي في شهر مارس 1957، فرغم قصر المدة زمنيا (ستة أشهر ونصف)، إلا أن دور الشهيد خلالها كان بارزا ومهما، وذلك انطلاقا من مشاركته المتميزة في مؤتمر الصومام وتعيينه عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ولجنة التنسيق والتنفيذ، حيث كلَف بالعمل الفدائي، ثم انتقاله إلى العاصمة ليشرف بنفسه على ذلك، إلى جانب مساهمته البارزة في تأطير إضراب الثمانية أيام (28 يناير- 4 فبراير 1957)، وأخيرا القبض عليه من قبل قوات المظليين ثم اغتياله. سيكون اعتمادنا في دراسة هذه المرحلة على مذكرات أولئك الذي عايشوا الفترة سواء من الجانب الجزائري أو الفرنسي، رغم ما قد يعترضنا من تناقض في ذكر الوقائع أو السكوت عن بعضها.

قبل أن نتحدث عن هذه الوقائع ومساهمة الشهيد فيها، يجدر بنا أن نبين باختصار بعض جوانب شخصيته والعوامل التي مكنته من القيام بهذا الدور الفعال معتمدين في ذلك على شهادات بعض من عايشوه، فيذكر صديقه وزميله داخل لجنة التنسيق والتنفيذ المرحوم سعد دحلب أنه كان يطلق عليه اسم "المحرقة الملتهبة"، حيث يقول "...أما بن مهيدي، وعلى عكس الصورة التي أعطيت عنه في فيلم ياسف سعدي حول "معركة الجزائر" حيث يظهر مستسلما صامتا قليل الثقة بنفسه كمثل المتصوف ... فقد كان ذا فيض زاخر بالأفكار. وبالنظر إلى المناقشات الحادة والمتوترة التي كان يثيرها وينشطها عندما كان إطارا دائما في حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وإلى السرعة التي كان يتحلى بها في تقديمه لعروضه، فقد كان زملاؤه يلقبونه "بالمحرقة الملتهبة"[2].

ويركز صديقه الآخر داخل لجنة التنسيق والتنفيذ، المرحوم بن يوسف بن خدة، على تدين بن مهيدي وتمسكه بتعاليم الإسلام، فيقول "كان بن مهيدي رجلا مؤمنا، متشبعا بمبادئ القرآن الكريم، يؤدي صلاته أينما يحل وفي وقتها، شديد التمسك بالقيم الإسلامية التي تضمنها مشروع حزب الشعب ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية، والتي أعيد صياغتها في بيان أول

نوفمبر 1954، أما داخل الحزب فكنا نطلق عليه "المحرقة الملتهبة"، فكان متقد الفكر، دائم النشاط والحيوية"[3].

ويذكر السيد سي لخضر بورقعة في مذكراته، أنه التقى بالشهيد في جنوب جبال الشريعة بغابة مورفة، وكان لهذا اللقاء تأثير كبير على سي لخضر الذي يعطينا أوصافا لبن مهيدي فيقول "أول مرة وقعت عيناي على رجال طالما سمعت عنهم وأحببتهم... ومن هؤلاء الشهيد العربي بن مهيدي، هذا الرجل الذي جمع بين صفات الحكيم وميزات القائد، كان متوسط القامة، هادئ الطبع، يهمس حين يتكلم، له بريق تشعه عيناه فيمنع عن الناظر التحديق فيه...في وجهه بقايا طفولة تستأنس بها، فيخيل إليك أنك تعرفه منذ الأبد، بسيط في سلوكه وهندامه، يضع برنسه فوق زيه العسكري ويحمل مسدسه لا غير[4].

أ- العربي بن مهيدي ومؤتمر الصومام: انعقد هذا المؤتمر في يوم 20 أوت 1956 بمنطقة الصومام (غابة أكفادو- قرية أوزلاقن) بالولاية الثالثة، ونحن هنا لسنا نتحدث عن ظروف وسير المؤتمر وإنما نريد أن نبين الدور البارز للشهيد العربي بن مهيدي في إنجاحه، فلقد شارك في التحضير الجيد له، حيث تنقل إلى الجزائر العاصمة في شهر ماي 1956م، وانضم إلى القيادة الجديدة التي كانت تحضر للمؤتمر، والمتكونة من كريم بلقاسم وأوعمران وعبان رمضان، وهذا بعد تفكك قيادة الثورة في الداخل والمنبثقة عن اجتماع الاثنين والعشرين، بعد استشهاد القائدين ديدوش مراد ومصطفى بن بولعيد، وإلقاء القبض على رابح بيطاط وتواجد المرحوم محمد بوضياف في الخارج.

وبفضل نشاطه الحثيث داخل هذه الجماعة، عُين رسميا لرئاسة المؤتمر[5]، وبذلك كان له الأثر البارز في إنجاحه مما أعطى دفعا قويا للثورة، فبعد مشاركته في التحضيرات نجده يترأس جلساته ويسجل القرارات المنبثقة عنه، حتى أن جميع من حضر إلى المؤتمر شهد له بدوره الإيجابي "فباعتباره رجل وحدة، لعب دورا كبيرا في تقريب وجهات النظر بين المؤتمرين، واستطاع أن يسهل كل الصعوبات والخلافات" [6]، ويؤكد بن يوسف بن خدة على هذا الدور حين يقول" لولا بن مهيدي ما كان مؤتمر الصومام ليحقق ذلك النجاح الكبير، ولما استطاع عبان رمضان أن يمرر أفكاره وآراءه التي أصبحت قرارات رسمية تبناها الحاضرون" [7]

ازداد دور بن مهيدي بعد المؤتمر، فأصبح من أبرز قادة الثورة الجزائرية، حيث رُقي إلى رتبة عقيد COLONEL، كما عُين عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وكذلك في

لجنة التنسيق والتنفيذ التي اتخذت من مدينة الجزائر العاصمة مقرا لها وضمت إلى جانبه كلا من: كريم بلقاسم، عبان رمضان، بن يوسف بن خدة وسعد دحلب. ولابد من التأكيد على أن هذه اللجنة أعطت نمطا ودفعا جديدين للكفاح، كما ساهمت في إعادة تنظيمه سياسيا وعسكريا، ويذكر المرحوم سعد دحلب بأن لجنة التنسيق والتنفيذ كانت "أكثر من مكتب سياسي حيث أنها كانت ديوان حرب حقيقي ومتمكَن من كل السلطات السياسية والعسكرية في الفترات الفاصلة بين جلسات المجلس الوطني للثورة الجزائرية. فلأول مرة تجد سلطة جبهة التحرير نفسها منسقة ومركزة في هيئة محددة بوضوح، ولم يعد هناك ما قد يثير أي تشابك أو تشتت في السلطات، فالثورة الجزائرية لها الآن طليعة على رأسها، يعرفها الكل ومتمثلة في لجنة التنسيق والتنفيذ"[8].

ويظهر أن العمل داخل اللجنة ساده التفاهم والجو الأخوي خدمة للمصالح العليا للثورة، فكانت اجتماعاتها تتسم بالحماس والنقاش المثير لأن المسؤولية الملقاة على عاتق أعضائها كانت جسيمة وخطيرة، ويعطينا سعد دحلب مميزات كل عضو من أعضائها فيقول: "...كان عبان أشدنا غضبا، وكان بن مهيدي في بعض الأحيان شديد الحساسية إزاء ما يمس غيرته، أما كريم فقد كان أكثر تقيدا باللباقة والآداب، في حين أن بن خدة وأنا، فقد التزمنا بأن ننسي الناس بأننا كبار مسؤولي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية"[9].

ب- محمد العربي بن مهيدي والعمل الفدائي: إلى جانب المهام السابقة التي ألقيت على عاتق الشهيد بن مهيدي، فإن مؤتمر الصومام كلَفه رسميا للإشراف على العمل الفدائي داخل المدن، وكان هذا القرار عملا استراتيجيا جديدا لجأت إليه قيادة الثورة هدفه تشتيت قوات العدو ونقل الرعب إلى المدن أين كان يستقر أكبر عدد من المعمرين.

ولتنفيذ هذه الإستراتيجية الثورية، قرر بن مهيدي التنقل إلى العاصمة ليشرف بنفسه على أفواج الفدائيين إضافة إلى توحيد العمل الفدائي في كل المدن بالتنسيق مع قادة الولايات الأخرى. غير أن السؤال الذي يطرح في هذا المجال: هل بدأ العمل الفدائي في مدينة الجزائر قبل مجيئ بن مهيدي؟ أم أنه لم ينطلق إلا مع دخوله إليها؟

تتفق المصادر على أن العمل الفدائي في مدينة الجزائر العاصمة انطلق فعليا منذ أكتوبر 1955، حيث تشكل أول فوج للفدائيين بقيادة كل من المدعو مصطفى فتال الذي كان يشتغل لحاما وبوشافة بلقاسم الذي كان ميكانيكيا وثالث يدعى دبيح الشريف الذي عمل خراطا.

أما الإشراف على العمل الفدائي داخل حي القصبة الشعبي فأوكل إلى شخص يدعى بوزرينة أرزقي، وكان من بين من عملوا تحت مسؤوليته ياسف سعدي الذي سيشرف فيما بعد على منطقة الجزائر الحرة[10].

وبهذا التنظيم تشكلت ست خلايا فدائية تنشط في كل أحياء مدينة الجزائر، وتمكنت من القيام بعدة عمليات كللت بالنجاح، ومن أهمها [11]:

1- في المجال العسكري: تصفية الخونة والعملاء ورجال الشرطة وحراس السجون وغيرهم من موظفي الأمن والإدارة.

2- في المجال السياسي والتنظيمي: تنظيم الجماهير وإشراكها في الكفاح المسلح من خلال جمع التبرعات والاشتراكات، إلى جانب المساعدات المادية كالأدوية والملابس.

3- جمع المعلومات عن تحركات العدو ثم ايصالها إلى المجاهدين.

4- إيواء قادة الثورة بتوفير الحماية لهم وإيجاد ملاجئ سرية، خاصة في حي القصبة وغيره من الأحياء الشعبية الأخرى في المدينة، إلى جانب استئجار شقق في الحي الأوربي بأسماء مستعارة وذلك لتمويه العدو الذي سوف لن يخطر بباله بأن المطلوبين من أعضاء الجبهة سيلجئون إلى هذه الحي.

5- توجيه نداء إلى كل المنتخبين المسلمين الجزائريين للاستقالة من المجلس الجزائري عند اندلاع الثورة، فاستجاب له منتخبو حركة انتصار الحريات الديمقراطية والحزب الشيوعي الجزائري.

كان الموقف الفرنسي متشددا تجاه هذه الخلايا الفدائية، فواجهتها بجملة اعتقالات واسعة، وكان من بين أهم الذين قبض عليهم، رابح بيطاط، قائد الولاية الرابعة وذلك في شهر مارس 1955، مما أحدث ركودا في العمل الفدائي داخل العاصمة، ولكن قامت محاولات لإعادة تنشيطه ونجحت في تكوين أفواج جديدة تدعمت بمناضلين جدد وانقسمت إلى قسمين: قسم متخصص في العمل الفدائي وآخر في العمل السياسي[12].

ولكن مع قدوم الشهيد بن مهيدي إلى الجزائر العاصمة، عرف العمل الفدائي تطورا نوعيا وتنظيما محكما أكثر مما كان عليه سابقا. وكان مؤتمر الصومام قد اتخذ قرارا يجعل من الجزائر العاصمة "منطقة حرة ومستقلة " منفصلة عن قيادة الولاية الرابعة، ويعود اهتمام قيادة الثورة بالمدينة لعدة اعتبارات نوجزها فيما يلي:

1- تشكل الواجهة الحقيقية للجزائر.

2- تتجمع فيها مقرات البعثات الديبلوماسية، ومراسلي الصحف ووكالات الأنباء العالمية، وهكذا فإن أي عملية فدائية مهما كان حجمها وطبيعتها تؤثر بشكل سلبي على المستعمر وتسبب له إرباكا، وقد يكون تأثيرها أكثر من اشتباك يقع في الجبال، فحدوث عملية في العاصمة يكون لها صدى نتيجة وجود التمثيل الديبلوماسي والصحافة التي تتناقل الخبر، إلى جانب وجود مقر الحاكم العام ومصالح الإدارة الفرنسية كلها[13].

3- تعتبر بمثابة ولاية حربية قائمة بذاتها، نتيجة كثافة سكانها وطبيعة إطارات الثورة المتواجدة بها، فمن بين 700000 ساكن كانوا يقطنون المدينة، كان نصفهم من الجزائريين، منهم حوالي 80000 يتركزون في حي القصبة أحد القلاع الحصينة للثورة، وكل هؤلاء كانوا من المساندين والمنخرطين داخل جبهة التحرير الوطني[14].

4-كانت مقرا ومستقرا للجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عن مؤتمر الصومام .

وكان من بين من استقروا في المدينة بعد مؤتمر الصومام -كما سبق ذكره- الشهيد العربي بن مهيدي، حيث وصل إليها ما بين شهري سبتمبر وأكتوبر 1956، واستقربه المقام بحي القصبة العتيق، في مسكن يقع في "ممر غرناطة" ويقال بأن هذا المسكن كان ملكا لخالة المجاهدة جميلة بوحيرد[15]. أما حراسته والسهر على أمنه فقد أوكلت إلى شبكة الفدائيين التي كان يشرف عليها "ياسف سعدي"، ويذكر هذا الأخير في مؤلفه "معركة الجزائر" الطريقة التي دخل بها بن مهيدي إلى المدينة فيقول بأنه "في أواخر شهر أكتوبر من عام 1956 اتصل بي الشهيد ديدوش مراد ليخبرني بأنني سأستقبل شخصية مهمة وأحد قيادات الثورة ....فكلفت "عمر الصغير **LE PETIT OMAR** "لينتظره في المكان المحدد، وكان مخبزة تابعة لشخص يدعى حميد شيبان وتقع في حي باب الجديد، ولما وصل عمر إلى المكان تلفظ بكلمة السر المتفق عليها، ثم دعا الرجل صاحب النظارات – يعني بن مهيدي – إلى اصطحابه. وبعد ربع ساعة دخل إلى المسكن المحدد والواقع في الرقم خمسة بحي غرناطة"[16].

ويواصل "ياسف سعدي" بأن بن مهيدي أطلعه على قرارات مؤتمر الصومام، ثم نظرة شاملة على وضعية العمل الفدائي داخل المدينة، كما اتصل بأعضاء من "فرقة القنابل"، وهي الفرقة المكلفة بوضع القنابل في المناطق الحيوية والإستراتيجية وتلك التي يرتادها المعمرون، وبعد ذلك عاد ليستقر نهائيا في حي القصبة، وأصبح "عمر الصغير" الواسطة بن مهيدي

والأطراف الأخرى للجبهة داخل المدينة، وقد نتج عن ذلك علاقة وطيدة بينه وبين بن مهيدي[17].

أدخل الشهيد تغييرات كبيرة على التنظيم الفدائي داخل العاصمة، والذي كان يشرف عليه "ياسف سعدي"، فقسمت المدينة إلى ثلاث نواحي، على رأس كل ناحية يوجد مسؤول يساعده نائبان، وتقسم كل ناحية إلى أقسام، والأقسام إلى فروع، والفروع إلى أفواج، والأفواج إلى خلايا قاعدية تتوزع على كل الأحياء. أما بن مهيدي فكان يساعده بدوره نائبان: واحد مكلف بالشؤون العسكرية والآخر بالشؤون السياسية [18]، وهكذا فإن هذا التنظيم اتخذ شكل هرم، يضم من قاعدته إلى رأسه حوالي 12000 مناضل معظمهم متخصصون في العمل الميداني [19].

لقد ضمت هذه المجموعة خيرة الفدائيين، فهم يتقنون استعمال السلاح ووضع الكمائن، ومما زاد في قوتها تدعيمها بخلية جديدة مكلفة بصنع ووضع القنابل ابتداء من صيف 1956، وكانت تتشكل من حوالي أربعين مناضلا يمثلون القوة الضاربة للعمل الفدائي، على أنه في أواخر عام 1956 وبداية 1957 كانت القيادة المكلفة بالعمل الفدائي تتشكل من الأشخاص التالية أسماؤهم [20]:

المسؤول العام: ياسف سعدي.

النائب: على عمار (علي لابوانت).

مسؤول المنطقة الأولى: عبد الرحمن عرباجي.

النائب: حاجي عثمان.

مسؤول المنطقة الثانية: حمود عادر .

النائب: أحسن غندريش.

مسؤول المنطقة الثالثة: بوعلام بن عبد الرحمن.

النائب: بوعلام بن عبد الرحمن.

ولم يقتصر العمل الفدائي على الرجال دون النساء، فلقد ساهمت المرأة بدور فعال في هذا الميدان، ويظهر أن بن مهيدي والآخرين كانوا ذوي نظر ثاقب بإشراكها، فهي بعيدة عن كل الشكوك والتفتيش الذي قد يتعرض له الرجال، وتركزت مهمتها خاصة في إيصال الرسائل والمعلومات، كما كانت حلقة وصل بين خلايا الفدائيين الموزعين على مختلف أحياء

المدينة، هذا إلى جانب دورها في حمل القنابل ووضعها في أماكن تجمع رجال الشرطة والجيش والمستوطنين، ومن أمثال هاته النسوة، جميلة بوحيرد، حسيبة بن بوعلي وغيرهن .

كما ركَز التنظيم الفدائي داخل المدينة على العمل الإعلامي بتوزيع المناشير الخاصة بالجبهة وجيش التحرير الوطني، والتي كانت توزع بشكل منظم وبسرعة فائقة كل أحياء العاصمة، هذا إلى جانب إصدار جريدة المجاهد، التي نشر فيها الشهيد مقالا في العدد الثاني الصادر في شهر جويلية 1956، بل وصل الحد أنه تم نشر إشاعات بأن أفرادا من جيش التحرير قد دخلوا المدينة، والغاية من ذلك نشر الرعب في صفوف العدو[21] وإرباك المستوطنين الذين أصبحوا يضغطون على حكومتهم لاتخاذ الإجراءات الملائمة.

وإلى جانب خلية العمل العسكري التي أشرف عليها بن مهدي، وجدت داخل المدينة خلية للعمل السياسي كان يشرف عليها بن يوسف بن خدة، وكانت بمثابة "محافظة سياسية"، غير أن هذا ليس موضوع دراستنا.

ج- محمد العربي بن مهيدي وإضراب الثمانية أيام: لعل من أهم مقترحات بن مهيدي داخل لجنة التنسيق والتنفيذ، كان دعوته إلى إضراب وطني شامل يمتد حتى إلى الأراضي الفرنسية ويرافق طرح القضية الجزائرية داخل الجمعية العامة للأمم المتحدة، وقد وافقه الأعضاء الأربعة الآخرون. غير أنه وقع نقاش حاد حول مدته والعواقب التي ستنجر عنه، وفي هذا المجال يقول سعد دحلب "لا أتذكر بالضبط من اقترح ثمانية أيام ...... وقد انتهينا إلى تقبل مدة الثمانية أيام، حيث أن بن مهيدي كان يدافع وبكل حدة عن فكرة القيام بالإضراب لمدة شهر. لم أره أبدا ينظر إلي بمثل هذا الازدراء وربما الشفقة -كان دائما يعاملني بكل ظرف وحفاوة- عندما غامرت باقتراح يوم أو يومين على الأكثر، زد على ذلك أن أحدا لم يجبني فكتمت أنفاسي دون نقاش"[22]. ومن هذا القول يتبين أن بن مهيدي كان أكثر أعضاء اللجنة حماسة واندفاعا وما تسميته "بالمحرقة الملتهبة" أو "صندوق الأفكار" إلا دليل قاطع على ذلك.

ويؤكد بن خدة حماس واندفاع بن مهيدي لفكرة الإضراب حين يذكر بأنه كان صاحب الفكرة وأنها لقيت استحسانا من الأعضاء الأربعة الآخرين للجنة التنسيق والتنفيذ، إلا أن الخلاف بينهم كان حول مدة الإضراب، فبن مهيدي اقترح مدة شهر كامل ظنا منه أنه كلما طالت المدة كلما كان صداه أكثر تأثيرا، في حين نظر سعد دحلب إلى الموضوع بنظرة مصلحية لأنه كلما طالت مدة الإضراب فإن ذلك لن يكون في مصلحة الشعب الجزائري، أما باقي

الأعضاء -أي عبان رمضان وكريم بلقاسم وبن خدة- فوافقوا على طول المدة بشرط ألا تصل إلى شهر كامل [23]، وفي الأخير تم الاتفاق على ثمانية أيام، وهو الرأي الذي وافق عليه أيضا ممثلو الاتحاد العام للعمال الجزائريين عن طريق علي يحي عبد النور [24]. ولنا أن نتساءل حول الدوافع التي جعلت بن مهيدي يقترح إضرابا لمدة شهر كامل، هل كانت استراتيجية أم حماسية فقط؟ في هذا المجال يذكر "جيلبير مينيي GILBERT RMEYNIE" أن بن مهيدي ارتكب أخطاء في التخطيط، خاصة خلال التحضير للإضراب، فهو في رأيه لم يكن رجل حسابات دقيقة وكثيرا ما كان يحركه تديُنه وحماسته الإسلامية والوطنية [25]، إلا أننا إذا أردنا أن نحكم على فكرة الإضراب فلا بد أن نراعي ظروف تلك المرحلة التي أحاطت بطرحها.

أما عن اختيار تاريخ يوم 28 يناير1957، فيذكر بن يوسف بن خدة أن قرار الإضراب اتخذ في العشر الأوائل من شهر نوفمبر 1956، اعتبارا أن اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة كان مقررا لها أن تكون في 10 ديسمبر 1956 حيث كانت الكتلة الأفرو -آسيوية مصممة على طرح القضية الجزائرية، غير أن الاجتماع تأجل إلى يوم 20 ديسمبر 1956، ثم تأجل مرة أخرى باعتبار أن هذا التاريخ صادف احتفالات رأس السنة الميلادية، وأخيرا تقرر عقد الاجتماع يوم 28 جانفي 1957- رغم أنه أجل مرة أخرى إلى تاريخ 15 فبراير1957-، وهكذا تقرر أن تكون بداية الاضراب في هذا اليوم [26]. أما سعد دحلب فيضيف بأن اللجنة قررت الإضراب في هذا اليوم لأنه يصادف نهاية الشهر وبهذا يكون الموظفون والمستأجرون قد تقاضوا أجورهم [27].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإضراب جاء ليتوج عدة أشهر من العمل الفدائي داخل العاصمة، حيث بلغت العمليات أقصاها في نهاية عام 1956 ومطلع سنة 1957، فكانت أربع عمليات في يناير 1956، ثم خمسين عملية في جوان 1956 لتصل إلى 95 عملية في أكتوبر و122 عملية في ديسمبر من نفس العام، كما بلغت 112 عملية في يناير 1957 [28]، وهي عمليات سببت هلعا ورعبا في صفوف المعمرين الذين بدأوا يضغطون على السلطات لاتخاذ إجراءات ردعية لإيقافها وتأمين حياتهم وممتلكاتهم.

أما عن الأهداف المتوخاة من الإضراب، فإن بن مهيدي كان يسعى إلى إشراك كل الشعب في العمل الثوري، حتى يبيّن شعبية هذه الثورة ويعطيها دفعا قويا إلى جانب نشر

الرعب وروح الانهزام في صفوف المعمرين والجيش. وقد حددت "جريدة المقاومة " لسان حال جبهة التحرير الوطني هذه الأهداف فيما يلي:(29)

1- حشد الأمة الجزائرية كلها للمشاركة في عمل جماعي جبار يتحدى سلطة الاستعمار وقوته المسلحة.

2- تحقيق القطيعة النهائية بين النظام الاستعماري وبين الشعب الجزائري.

3- القيام بعمل جديد في حركة الشعب الكفاحية.

4-كان الإضراب التزاما من الشعب كله أكد فيه عزمه على انتصار ثورته.

5- التأكيد على ثبات الشعب الجزائري في وجه السياسة القمعية للجنرال ماسو وقي مولي ولاكوست .

6- كان الإضراب عملية استفتاء وطني عبر به الشعب عن ثقته المطلقة في جيش وجبهة التحرير الوطني.

في اليوم المحدد -28 يناير 1957- أذيع خبر الإضراب عبر إذاعة "صوت العرب" من القاهرة، وهكذا عم كل أرجاء الوطن وامتد حتى إلى الأراضي الفرنسية حيث ساهم المهاجرون فيه، أي أن الإضراب لم يقتصر على مدينة الجزائر فقط بل كان شاملا، وهذا ما تؤكده جريدة "الأوبسارفاتور OBSERVATEUR'L" الفرنسية حيث جاء في إحدى مقالاتها ما يلي: "...ففي وهران وتلمسان وسيدي بلعباس ومستغانم، كانت الدكاكين كلها مغلقة، وفي عمالة قسنطينة كلها كان الإضراب شاملا والأسواق فيها عبارة عن صحراء...، أما في فرنسا فإن حركة الإضراب قد لاقت في الأيام الأولى نجاحا نسبيا"(30).

ولإنجاح الإضراب خصصت قيادة الثورة حملة إعلامية واسعة، فإلى جانب إذاعة "صوت العرب" تم توزيع المناشير، كما أن "جريدة المقاومة" نشرت عنوانا إشهاريا مضمونه:

"هذا أسبوع الإضراب الجبار وعرض القضية على الأمم المتحدة.

هذا أسبوع تضامنكم الفعال مع الجزائر يا أحرار المغرب العربي"

كما نشرت النداء الموجه إلى الشعب الجزائري ومما جاء فيه:

"أيها الشعب الجزائري!

إن القيادة العليا لجيش وجبهة التحرير الوطني التي هي مرشدك في النضال. والتي تعززها ثقتك المطلقة بها، ترسل إليك هذا النداء لتنفيذ إضراب شامل لمدة ثمانية أيام في كامل التراب الوطني.

إن واجبكم هو أن تساعدوا بعضكم بعضا في هذا الاستعداد..."[31].

تميز سير الإضراب بالانضباط المحكم، فهو لم يكن ذا طابع تمردي كما حاول كثير من الفرنسيين أن يثبتوه، بل كان سلميا ومنظما، فحسب الجنرال "جاك ماسو MASSU" فإن "بداية الإضراب تميزت بالهدوء التام ولم يصاحبها أي أعمال تخريب أو عنف"[32]. لقد صدرت أوامر صارمة تدعو السكان إلى البقاء في منازلهم وألا يردوا على أي استفزاز يصدر عن السلطات الاستعمارية، حتى أن هناك من أكد بأن بن مهيدي كان يهدف من وراء هذا الإضراب أن يجعل منه "ديان بيان فو" سياسي.

ومما زاد في نجاح الإضراب وفعاليته، انتشار صداه في أرجاء العالم حيث تناقلت أخباره وكالات الأنباء والصحف الأجنبية، وعلى سبيل المثال ما جاء على لسان وكالة "أسوشيتد الأمريكية" فقد كتب مراسلها قائلا "إن الإضراب العام الذي طالما دعت إليه جبهة التحرير الوطني الجزائري قد تجسم أمس بصورة ملموسة في عاصمة الجزائر، إنني لم أشاهد كامل نهار أمس أثناء جولاتي صحبة الدوريات العسكرية بمختلف أنهج القصبة سوى جماعات القطط الجائعة التي تتسابق لاستقبال الجنود وهي تموء"، ونفس الانطباع أوردته وكالة "رويتر البريطانية" حيث جاء في تقريرها "بدأ الجزائريون إضرابا حددت مدته بأسبوع، ودعت إليه جبهة التحرير الوطني الجزائري، وكانت جميع الحوانيت في الجزائر ما عدا الحوانيت الفرنسية مغلقة في ساعة مبكرة من يوم الاثنين، وبعد ذلك ببعض الوقت بدأت القوات الفرنسية في حمل أصحاب هذه الحوانيت على فتح حوانيتهم"[33].

أما فيما يخص مدى انتشار الإضراب واستجابة الجزائريين له فتواصل نفس الوكالة قائلة: "...وتفيد الأنباء أن ما يقرب من 90 في المائة من الحوانيت في المدن الرئيسية في الجزائر كانت مغلقة، وأن حوالي 70 في المائة من الموظفين الذين ليسوا من الفرنسيين لم يذهبوا إلى أعمالهم... هذا وإن الأنباء الواردة علينا من القطر الجزائري تدل على أن الإضراب كان يشمل جميع أنحاء البلاد من مغنية على الحدود الجزائرية- المغربية إلى تبسة على الحدود الجزائرية-التونسية"[34].

يستخلص من هذا القول أن الإضراب لم ينحصر في مدينة الجزائر فحسب بل عم كل أرجاء

البلاد، رغم أن صداه بالعاصمة كان أكثر وقعا للأسباب التي ورد ذكرها سابقا والتي جعلت قيادة الثورة تركز أكثر على العاصمة دون إهمال باقي المدن والمناطق.

ولم تتخلف الصحف الفرنسية عن التعليق على هذا الحدث، فقد أفردت جريدتا "لوموند LE MONDE" و"الأوبسارفاتور" حيزا هاما من صفحاتها للتعليق على الإضراب، وهو نفس الاهتمام الذي أولته الصحف العربية مثل جريدة "العلم" لسان حال حزب الاستقلال المغربي، وجريدة "الشعب" المصرية، أما في تونس فلقد أعلن الشعب التونسي إضرابا عاما لمدة نصف يوم والذي صادف اليوم الثالث من الإضراب، أي يوم الأربعاء 30 يناير1957 تضامنا مع كفاح الشعب الجزائري[35].

د- رد الفعل الفرنسي على الإضراب: كلفت فرنسا الفرقة العاشرة للمظليين بقيادة الجنرال "جاك ماسو" بمهمة إفشال الإضراب، وكان ذلك قبل بدايته بأيام عديدة لما وصلت أخبار إلى السلطات الفرنسية حول تحضير قيادة جبهة التحرير لما سمته "العصيان"، ففي يوم 7 يناير 1957 صدر مرسوم أسند مهمة حفظ النظام والأمن داخل المدينة إلى هذه الفرقة، وبموجبه مُنح "ماسو" صلاحيات لا حدود لها جعلت منه المتصرف الأول داخل المدينة، فيذكر أن الحكومة كلفته بإفشال الإضراب في كل مراحله: الإعداد، الانطلاق، التنفيذ والعواقب، حيث سميت هذه العملية "بعملية شنبان Champagne"، وحسب المرحوم بن خدة فقد دامت حوالي العام استعملت خلالها كل وسائل القمع ضد الجزائريين[36]، فقبل الإضراب قامت قوات المظليين باعتقال المئات من المشتبه فيهم وتم حشدهم في أماكن خاصة، كما خصصت مراكز محددة تمارس فيها مختلف أساليب التعذيب والاستنطاق، ومنها على سبيل المثال "فيلا الأبراج الصغيرة" التي كانت عبارة عن مبنى يقع في ضواحي العاصمة يتكون من طابقين وأربع غرف في كل طابق، وهناك كان يحوّل المساجين لاستنطاقهم تحت طائلة التعذيب [37].

وإضافة إلى سياسة القمع لجأت السلطات الاستعمارية إلى نوع من الحرب النفسية منذ مطلع شهر يناير، تقوم على توزيع منشورات مزيفة ومنسوبة إلى جبهة التحرير الوطني مضمونها أن الدعوة إلى الإضراب ماهي إلا حيلة لجأت إليها فرنسا بقيادة "لاكوست" وأتباعه، وبالتالي فعلى الشعب ألا ينساق وراء هذه الدعوات، في الوقت الذي لجأ فيه الجنرال "ماسو"

إلى أسلوب الترهيب والتخويف من خلال البيان الذي أذيع عبر قناة إذاعة الجزائر، ومما جاء فيه "أن الإضراب محظور وإذا وقع فسوف يوضع له حد باستعمال القوة حالا"[38].

وخلال أيام الإضراب تواصل القمع الفرنسي ضد الجزائريين المضربين، حيث سعت قوات المظليين إلى إجبار هؤلاء على العودة إلى أماكن عملهم، فاقتحمت البيوت وأُخرج من فيها حيث اقتيد الرجال إلى دكاكين المدينة ومعاملها لإفشال الإضراب، حتى أن الأمر بدا مضحكا على حد قول بن خدة لما شوهد رجال بألبسة أنيقة يقومون بجمع القمامات من الشوارع[39]، ويعطينا "ماسو" وصفا دقيقا لما قامت به فرنسا في ذلك اليوم حيث يقول "كان الفتح الإجباري للمحلات والأسواق إحدى الأعمال الأكثر جلبا للأنظار في تلك الصبيحة، كانت المهمة سهلة في بعض الحالات حيث وبعثور المظليين عليه لم يكن يجد التاجر المرغم على الإضراب بدا من رفع الستار الحديدي لمحله، أمام جبهة التحرير يمكن أن يقدم العذر عن فعل ذلك بأنه كان مجبرا. وإذا كان التاجر قد أحسن الاختباء أو أضاع لسوء الصدف مفاتيح الستار الحديدي، فلم تكن الأمور تتعطل: حيث لا يمكن لأي ستار حديدي الصمود أمام جر الشاحنات العسكرية GMC" [40].

ما يجب الإشارة إليه أن سياسة القمع الفرنسي كانت لها آثار سلبية على الجزائريين الذين انتابهم الخوف، خاصة مع سياسة القمع التي مارسها الجنرال "ماسو" ومعه فرقة المظليين، خاصة بعدما تأكد هؤلاء بأن قيادة الجبهة المنبثقة عن مؤتمر الصومام كانت متواجدة داخل المدينة، مما إلى تكالبهم من أجل الوصول إلى "الرؤوس الكبيرة للجبهة".

ه- اعتقال بن مهيدي واغتياله: أثارت قضية القبض على الشهيد بن مهيدي الكثير من الجدل والنقاش، وكان السؤال المثير للجدل: هل كان اعتقاله بمحض الصدفة أم بعد وشاية؟

تؤكد شهادات كل من بن يوسف بن خدة وسعد حلب أن بن مهيدي اعتقل من قبل فرقة المظليين بمحض الصدفة وليس نتيجة وشاية، فلقد كان لإضراب الثمانية أيام آثار وخيمة على قيادة الثورة في المدينة، ذلك أن تلك الشقق التي اكترها الجبهة في الأحياء الأوربية لم تصبح في مأمن بعد حملات المداهمة والاعتقالات ثم الاستنطاق التي باشرها "ماسو" و"أوساريس" وزبانيتهم، فكان من نتائجها الكشف عن الكثير من الشقق والمخابئ.

ونتيجة لهذه الظروف الطارئة قررت قيادة لجنة التنسيق والتنفيذ الخروج من المدينة ولو بشكل مؤقت واللجوء إلى الجبل بالولاية الرابعة الأقرب من العاصمة، ولهذا السبب تم نقل بن

مهيدي من حي القصبة الغير آمن إلى الحي الأوربي في شقة صغيرة توجد بالطابق الأول في 5 شارع بيتيني خلف قاعة سينما "دوبيسي DE BUSSY " بحي البلاطو[41]. ولم يكن يعلم بهذا الأمر إلا بن خدة .

وسبب القبض عليه أنه تم القبض على أحد أعضاء شبكة جبهة التحرير، يقول عنه بن خدة أنه الوكيل العقاري للجبهة، الذي عثر المظليون داخل وكالته على عناوين شقق باعها لأعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ بأسماء مستعارة، وتحت وطئة التعذيب اعترف بأنه على علاقة بالمدعو "سي صالح "، الاسم الحركي لبن خدة، ولذلك توجه المظليون إلى عناوين الشقق إلا أنهم وجدوها فارغة لأن الجميع كان قد فر ماعدا الشقة التي كان يسكنها بن مهيدي [42].

أما سعد دحلب واستنادا إلى شهادة "ماسو" فيذكر أن الشخص الذي قبض عليه يدعى الهاشمي حمود، ونتيجة للتعذيب اضطر إلى الاعتراف بأنه يعرف بن خدة، وحدد مكان التقائهما في الشقة التي كان يتواجد بها بن مهيدي، ظنا منه أنها ستكون فارغة آنذاك. ولذلك فإن المظليين لما اقتحموا الشقة اصطدموا بالعربي بن مهيدي، ظانين بأنهم ألقوا القبض على بن خدة، غير أن بن مهيدي وبكل شجاعة قدم نفسه "فكانت مفاجأة وفرحة المظليين أمام غنيمة مثل هذه"[43].

أما المصادر الفرنسية فلا تعطينا معلومات مفصلة عن هذه القضية، فكل ما ذكره "أوساريس" أنه في ليلة 15 إلى 16 فبراير تم القبض على بن مهيدي من قبل الوحدة الثالثة للمظليين بقيادة "بيجار" بعد الحصول على عنوانه – لم يذكر كيفية الحصول عليه – وأن هذه الأخبار بقيت سرا لمدة أسبوع كامل [44]. ولكنه يذكر في موضع آخر أن المصالح الفرنسية تتبعت ابن الملياردير "ابن شيكو" الذي كان يملك مصنعا لإنتاج التبغ بالعاصمة، وتكَفَل بتسيير أموال جبهة التحرير، ولما أوقف الابن أقر بالكثير من الحقائق ومنها العنوان الذي كان يختبأ فيه بن مهيدي [45].

وبعد القبض عليه وقع الإجماع على ضرورة التخلص منه بأسرع وقت ممكن، وبخاصة من قبل وزير الحربية "ماكس لوجون MAX LE JEUNE"، والوزير المقيم "روبرت لاكوست ROBERT LACOSTE"، وكبار الضباط العسكريين، ويستثنى من هؤلاء "بيجار"– حسب بعض الشهادات– الذي عمل على استغلال بن مهيدي للعمل مع فرنسا، حتى أنه اتهم فيما بعد مصالح الاستعلامات الخاصة بضلوعها في عملية الاغتيال[46].

وكان من أبرز المتحمسين لاغتياله الضابط "بول أوساريس"، فيذكر في مذكراته أنه في بداية الأمر فكر في تسميم بن مهيدي، وفعلا استطاع الحصول على زجاجة بها 75 سل من السم من إحدى صيدليات العاصمة (47)، لكن الفكرة تم التخلي عنها فيما بعد. واتفق كبار الضباط (ماسو- أوساريس- ترانكيي) على ضرورة التخلص منه دون محاكمة، فكُلف "أوساريس" لتنفيذ هذه المهمة، ولذلك تسلَمه من القائد "بيجار" وتم اقتياده إلى مزرعة تبعد عن العاصمة بعشرين كيلومتر ملك لأحد المعمرين، وهناك أُدخل إلى إحدى غرفها أين تم تقييده ثم شنقه بكيفية توحي بأنها عملية انتحار، وبعدها نقلت جثته إلى المستشفى(48).

إن المصادر تختلف في سرد وقائع استشهاد بن مهيدي، "فأوساريس" يؤكد بأنه كان المشرف على شنقه بالمزرعة، في حين يذكر "ماسو" أن بن مهيدي شنق نفسه بسلك كهربائي وجده مرميا بين أكوام التبن (49)، أما الناطق الرسمي للوزير المقيم "لاكوست" فصرح في ندوة صحفية بعد يومين من عملية الاغتيال بأن بن مهيدي شنق نفسه داخل زنزانته مستعملا في ذلك قطعا من قميصه (50)، ونحن ننفي فرضية الشنق لأن تديُن بن مهيدي وثباته أمام آلة التعذيب لا تدفعانه إلى القيام بهذا الفعل المحرم شرعا، كما أن شهادة " أوساريس" الذي أشرف على العملية تؤكد أنه شنق. ويذكر محمد عباس أنه في عام 1966 نقل جثمان الشهيد ليدفن في مربع الشهداء بالمقبرة العالية، فلاحظت عائلته ورفقاؤه الحاضرون آثار رصاصتين في جسده، الأولى في صدره والثانية في ذراعه (51)، فهل أطلق عليه الرصاص ثم أعدم؟ المهم أن فرنسا هي التي قتلت الشهيد دون محاكمته كما تنص عليه القوانين والأعراف، لأن ذلك كان سيكون له صدى داخليا ودوليا كبير ويجعل من بن مهيدي رمزا وبطلا ثوريا.

الهوامش

1- الديب فتحي، عبد الناصر وثورة الجزائر، الطبعة الثانية، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1990، ص ص 149 و161.

2- سعد دحلب، المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، بدون تاريخ، ص 42.

3-Benyoucef, Ben Khedda. Abane-Ben M'hidi: leur apport à la révolution Algérienne. Edition Dahleb, Alger, 2000, p.67.

4- بورقعة سي لخضر، شاهد على اغتيال الثورة، الطبعة الثانية، دار الحكمة، الجزائر، 2000 ، ص53.

5- عباس محمد، ثوار عظماء، الكتاب الأول، مطبعة دحلب، الجزائر، 1991، ص43.

6-Trodi, EL Hachemi. Larbi Ben M'hidi l'homme des grands rendez-vous. Edition ENAG, Alger, 1991, p.116.

7- Benyoucef, Ben Khedda. Op.cit. p. 68.

8- سعد دحلب، المصدر السابق، ص 30.

9- المصدر نفسه، ص41.
10-Teguia,Mohamed. L'Algérie en guerre. OPU, Alger,1988, pp.223-224.
11- قليل عمار، ملحمة الجزائر الجديدة ، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار البعث، قسنطينة، 1991، ص82.
12- المرجع نفسه، ص 81.
13- بن يوسف بن خدة، شهادات ومواقف، الطبعة الأولى، دار النعمان للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص ص116-117.
14-Benyoucef, Ben Khedda. Op.cit. p.38.
15-Trodi , EL Hachemi. op.cit. p.117.
16-Idem.
17-Idem.
18- قليل عمار، المرجع السابق، ص 83.
19-Benyoucef, Ben Khedda. Op.cit. p.41
20-Ibid. p.42.
21- قليل عمار، المرجع السابق، ص 83.
22- سعد دحلب، المصدر السابق، ص45
23- بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة1956-1957 (ترجمة مسعود الحاج مسعود)، دار هومة، الجزائر،2005، ص52.
24-Gilbert, Meynier. Histoire intérieure du FLN 1954-1962. Edition Casbah, Alger, 2003, p.323.
25-Ibid. p.328.
26- بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة...، ص 53-56.
27- سعد دحلب، المصدر السابق، ص46.
28-Gilbert, Meynier. Op.cit. p.323.
29- جريدة المقاومة، العدد السابع، السبت 16 رجب 1376هـ/ 16 فبراير 1957.
30- نفسه .
31- جريدة المقاومة، العدد السادس، الإثنين 26 رجب 1376هـ/ 28 يناير 1957م.
32-Teguia, Mohamed. Op.cit. p.226.
33- جريدة المقاومة، العدد السابع، السبت 16 رجب 1376هـ/ 16 فبراير 1957
34- نفسه.
35- نفسه.
36- بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة...، ص 65.
37- أوساريس بول، شهادتي حول التعذيب (ترجمة: فرحات مصطفى)، دار المعرفة، الجزائر، 2004، ص 118.
38- بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة...، ص ص 73-75.
39- نفسه، ص 75.
40- سعد دحلب، المصدر السابق، ص ص 50-51.
41- بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة...، ص 138.
42- نفسه، ص ص 142-143.
43- سعد دحلب، المصدر السابق، ص 54.
44- أوساريس بول، المصدر السابق، ص 132.
45- نفسه، ص. 136.
46- بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة...، ص ص 144-145.
47- أوساريس بول، المصدر السابق، ص 135.
48- المصدر نفسه، ص ص 139-.140
49-Teguia,Mohamed. Op.cit. p.239.
50-Trodi , EL Hachemi. op.cit. pp.127-128.
51- عباس محمد، المرجع السابق، ص 44.